

الشك المنهجي عند طه حسين "في الشعر الجاهلي أنموذجا"

Taha Hussein's systematic suspicion "pre-Islamic poetry as a model"

مزياني فاهيم*

مخبر الشعرية

جامعة الحاج لخضر باتنة (01)

البريد الإلكتروني: mezianifahim@gmail.com

تاريخ القبول: 2021-11-16

تاريخ الإرسال: 2021-07-14

ملخص:

يعد كتاب "في الشعر الجاهلي" لـ "طه حسين" واحدا من الكتب النقدية التي لقيت جدلا واسعا في الساحتين الأدبية والنقدية بسبب ما أثاره من قضايا يراها كثير من النقاد خطيرة تشكك في صحة المصدر الأول للتراث الشعري العربي، مصطنعا في ذلك منهج الشك الديكارتي، حيث تناول في دراسته نماذج لأهم الشعراء الجاهليين وأشعارهم، ونحن في هذا المقال حاولنا تتبع هذه التجربة النقدية والوقوف على ما كان يرمي إليه "طه حسين" في دراسته هذه، حيث طرحنا مجموعة من الإشكاليات التي تمس صميم هذا الموضوع وتحيط بأطرافه، ولتناوله بطريقة مناسبة وظفنا المنهجين: التاريخي والتحليلي. الكلمات المفتاحية: تراث؛ منهج؛ شك؛ نقد؛ فعالية.

Abstract:

A book on pre-Islamic poetry « fi chir el jahili » by Taha Hussein is considered one of the critical books that has met with widespread controversy in the literary and critical arenas because of the issues it raised, which many critics see as dangerous questioning the validity of the first source of Arab poetic heritage. His study of examples of the most important pre-Islamic poets and their poems, using the method of Cartesian doubt and in this article we tried to trace this critical experiment and stand on what Taha Hussein was aiming for in his study, where we presented some of questions that touch the

* - المؤلف المراسل.

depth of this topic and surround its edges, to address it in an appropriate way, we employed the two approaches: historical and analytical.

Key words: heritage; Method; Doubt; Critic; effectiveness.

مقدمة:

يعد "طه حسين" حالة خاصة وبارزة في إثراء الفكر النقدي العربي المعاصر وأنموذجا خصبا ومتجددا للمعرفة، لا يستقر على حال؛ مضطرب لا يطمئن لكثير لما يقال، يدقق النظر في كل شيء يراه يناقض العقل ويخالف المنطق، إنه حالة فريدة نادرة الحدوث؛ فهو أعمى ولكن ليس كالعميان، وبصير ولكن ليس كالمبصرين، هو أديب، وناقد للأدب، وهو مؤرخ، ومترجم، وصاحب فلسفة ثقافية نافذة، ورؤية حضارية ثاقبة.

ومحاولة معرفة منهج البحث لدى "طه حسين" في دراسة الأدب العربي القديم والأسس المنهجية التي اعتمدها لصياغة نظريته النقدية في الأدب العربي عامة والشعر الجاهلي خاصة، تستدعي منا الوقوف على ما شكّل ماهية هذه الرؤية النقدية لديه وهي في الأساس ذات توجهين كلاسيكي يقوم على مبادئ البلاغة القديمة، وحديثة هي مكتسبات حديثة تعتمد التعدد المنهجي حصلها أثناء دراسته في فرنسا، حيث تتلمذ على أيدي العديد من المستشرقين رواد المناهج السياقية .

ومن المهم الإشارة إلى الرؤية النقدية التي طبقها "طه حسين" على الشعر الجاهلي، والقائمة على التداخل بين منهج الشك الديكارتي والتأريخ الأدبي حيث إنه يصرح بأنه لا يقبل شيئا مهما كان ما لم يتحقق منه وهي نزعة استقاها "طه حسين" من الفيلسوف "ديكارت"، كما أنه عمل أثناء دراساته حول الشعر والأدب الجاهليين على المقارنة بين الحضارة العربية والغربية خاصة اليونانية والإغريقية والفارسية، وتكلم عن العديد من القضايا ليصل في الأخير إلى تفوق الحضارة الغربية في كل شيء. علاوة على ذلك تكلم عن الصراع بين القديم والجديد، ودعا إلى ضرورة التجديد ومسيرة ركب الحضارة وتغيير الذهنيات للحاق بالغرب، كما تحدث عن قضايا تمس الجانب الديني ولذلك لاقت كتاباته النقدية الكثير من ردود الأفعال

والتجريح، حتى هو نفسه توقع هذا الهجوم العنيف قبل نشره لدراسته؛ لأنه يعلم ما هو مقدم عليه، ونحن في هذا المقال سنسعى إلى الكشف عن ملامح هذه الرؤية النقدية وكيف طبقها "طه حسين" في كتابه، وإن كان قد حقق ما ذهب إليه من البداية أم لا، ولمعالجة ذلك رأينا طرح مجموعة من الإشكاليات التي ستكون الإجابة عنها تمثلاً للرب الموضوع المطروح عامة، وهي على الشكل الآتي:

كيف قرأ "طه حسين" التراث الشعري العربي الجاهلي من خلال كتابه في الشعر الجاهلي؟ ما هو موقفه من الشعراء الجاهليين وأشعارهم؟ وما هي دواعي قيامه بذلك؟ ما هي الآليات التي وظفها لتحقيق هدفه؟ وهل طأوعه منهج الشك في الاستدلال على صحة ما ذهب إليه؟ ولماذا؟ هل "طه حسين" مصيب فيما دعا إليه؟ وفيم تمثلت فعالية القراءة النقدية عند "طه حسين" في كتابه "في الشعر الجاهلي"؟ هذا ما حاولنا الإجابة عنه في صميم المقال، وقد وظفنا المنهجين التاريخي والتحليلي؛ الأول في استقصاء الظاهرة بكل حيثياتها، والثاني في تحليل ومناقشة آراء "طه حسين" وغيره من النقاد.

1- الرؤية النقدية عند طه حسين بين التقليد والتجديد:

تقوم الرؤية النقدية عند الناقد "طه حسين" في مجملها على محورين أساسيين مثلاً عنده لب التجربة الثرية التي خاضها في مضمار النقد ومنها صدرت جل آرائه وهما:

1-1- محور التقليد:

إن من يمعن النظر في كتابات "طه حسين" الأولى يلاحظ ميله كثيراً إلى النقد اللغوي والبلاغي، فهو كان يركز فيما يركز في نقوده على الصحة اللغوية، وجمال الأسلوب¹، وإن هذا التوجه الذي انتهجه في بداياته النقدية إنما هو

- ينظر: مصطفى الصافي الجويني، (د ت)، أبعاد في النقد الأدبي الحديث، (د ط)، منشأة المعارف،

¹الإسكندرية، ص: 18.

نتيجة مباشرة لتأثره بأسلوب أستاذه "المرصفي" الذي تتلمذ على يديه وأخذ عنه أصول النقد الكلاسيكي، فقد كان يراه أفقاً ممن عرف بمصر في اللغة العربية. وأسلمهم ذوقاً في النقد، وأصدقهم رأياً في الأدب، وأكثرهم روية في الشعر. كان المرصفي يدرس الأدب في الأزهر وكان "طه حسين" يختلف إليه فألزم نفسه لا ينقطع عن درسه مدة أربع سنوات فأحب الأستاذ ودرسه وقد أثار في نفسه تأثيراً شديداً فصاغها على مثاله وكوناً لها في الأدب و النقد ذوقاً على مثال ذوقه².

فكان الفتى حريصاً على إتباع مذهب القدماء من أئمة اللغة ورواة الشعر إقتداءً بشيخه، فحبب إليه مناحي الإعراب في فنون القول، وإيثاره للفظ البدوي الجزل الفخم، على الحضري السهل المهلهل، وامتعاضه من تكلف المؤلدين لأنواع البديع، مخضعين في ذلك المعنى للفظ، وانتحالهم لأنواع الفلسفة والمنطق التي تباعد بينهم وبين مذاهب الأولين³.

وكان لشدة تأثر "طه حسين" بسيد علي المرصفي وتعلقه بدروسه أثر كبير على نفسه، حيث إنه لم يكتف بالإتباع والطاعة، بل بالغ في مقت أولئك الشعراء المجددين كأبي الطيب المتنبي (915-965م)، ومسلم بن الوليد (753-823م)، وحبیب بن أوس (803-845م)، وأبي العلاء المعري (973-1075م) وغيرهم ممن خالفوا مذاهب القدماء من الأدباء والنقاد.

ولذلك كان همه منصباً على شكل النص ولغته "والعمل على النقد اللغوي إلى الأعماق"⁴. كما أنه كان ينقد النص مركزاً على اللفظ ويحرص على الدعوة إلى الابتعاد عن زخرف القول والتنميق في الأسلوب والصياغة والتكلف المخل، ومراعاة قواعد اللغة في الكتابة وعدم الخروج عنها.

2-1- محور التجديد:

² - ينظر: طه حسين، 1958م، تجديد ذكرى أبي العلاء، ط05، دار المعارف بمصر، ص: 05.

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص: 05، 06.

⁴ - أحمد علي، 1985م، طه حسين رجل فكر وعصر، (د ط)، دار الآداب، بيروت، ص: 156.

نتيجة مباشرة لتأثره بأسلوب أستاذه "المرصفي" الذي تتلمذ على يديه وأخذ عنه أصول النقد الكلاسيكي، فقد كان يراه أفقاً ممن عرف بمصر في اللغة العربية، وأسلمهم ذوقاً في النقد، وأصدقهم رأياً في الأدب، وأكثرهم روية في الشعر. كان المرصفي يدرس الأدب في الأزهر وكان "طه حسين" يختلف إليه فألزم نفسه لا ينقطع عن درسه مدة أربع سنوات فأحب الأستاذ ودرسه وقد أثار في نفسه تأثيراً شديداً فصاغها على مثاله وكونها في الأدب والنقد ذوقاً على مثال ذوقه⁵.

فكان الفتى حريصاً على إتباع مذهب القدماء من أئمة اللغة ورواة الشعر إقتداءً بشيخه، فحبب إليه مناحي الإعراب في فنون القول، وإيثاره للفظ البدوي الجزل الفخم، على الحضري السهل المهلهل، وامتعاضه من تكلف المؤلدين لأنواع البديع، مخضعين في ذلك المعنى للفظ، وانتحالهم لأنواع الفلسفة والمنطق التي تباعد بينهم وبين مذاهب الأولين⁶.

وكان لشدة تأثر "طه حسين" بسيد علي المرصفي وتعلقه بدروسه أثر كبير على نفسه، حيث إنه لم يكتف بالإتباع والطاعة، بل بالغ في مقت أولئك الشعراء المجددين كأبي الطيب المتنبي (915-965م)، ومسلم بن الوليد (753-823م)، وحبیب بن أوس (803-845م)، وأبي العلاء المعري (973-1075م) وغيرهم ممن خالفوا مذاهب القدماء من الأدباء والنقاد.

ولذلك كان همه منصباً على شكل النص ولغته "والعمل على النقد اللغوي إلى الأعماق"⁷. كما أنه كان ينقد النص مركزاً على اللفظ ويحرص على الدعوة إلى الابتعاد عن زخرف القول والتنميق في الأسلوب والصياغة والتكلف المخل، ومراعاة قواعد اللغة في الكتابة وعدم الخروج عنها.

1-2- محور التجديد:

⁵ - ينظر: طه حسين، 1958م، تجديد ذكرى أبي العلاء، ط05، دار المعارف بمصر، ص: 05.

⁶ - ينظر: المرجع نفسه، ص: 05، 06.

⁷ - أحمد علي، 1985م، طه حسين رجل فكر وعصر، (د ط)، دار الآداب، بيروت، ص: 156.

لم يثبت "طه حسين" على حال فيما يخص ممارسته للنقد على الجانب الكلاسيكي، بل تغيرت الذائقة المعرفية والذوقية لديه بفعل ما طرأ على حياته الثقافية والفكرية والعلمية من تغييرات ساهمت في تكوين شخصيته النقدية المتلونة حيث مقت التقليد والنمطية وآمن بما فرضته متطلبات العصر من تجديد وتحديث، ولعل ما جعله يقوم بذلك هو تلك المؤثرات التي لامست حياته، فأدت إلى تغيير قناعاته بالكلية بفعل التأثير خاصة بالأفكار الوافدة من الغرب وذلك باطلاعه على ما استجد على الساحة الأدبية والفكرية والنقدية الحديثة وعاش الكثير من ذلك على أيدي الرواد الذين هندسوا هذا التغيير واقتنع بما ذهبوا إليه، وراح يتبنى تحكيم فاعلية العقل في استكناه أغوار النص الأدبي لاستخراج كنوز التراث العربي. ولما عاد إلى مصر عمل على التبشير لذلك والتعريف به في أوساط الطلاب وكذا من خلال مؤلفاته التي نشرها في فترات متلاحقة وفي مواضيع مختلفة كدراسات أو ردود على الأدباء وغيرهم.

فقد كانت الجامعة المصرية التي وفد إليها ثلة من الأساتذة المستشرقين البارزين من إيطاليا وفرنسا وألمانيا، أول فضاء حر مكّن "طه حسين" من الولوج إلى عالم آخر من المعرفة لم يكن يحلم به قبل ذلك. انتسب "طه حسين" لقسم الآداب، وأخذ يسمع الدروس و يهمل العلم، فإذا كثير من المعارف كانت جديدة بالنسبة إليه، وإذا فنون من النقد لم يكن له بها عهد، وقد تنبه "طه حسين" إلى أن الباحث عن تاريخ الآداب لا يكتفي بإتقان اللغة و آدابها وأن يدرس التاريخ وتقويم البلدان درسا مفصلا، لكن كان من الضروري له أيضا أن يدرس الآداب الحديثة في أوروبا، وأن يعتمد مناهج البحث عند الغرب⁸.

لقد تشبّع "طه حسين" بالروح العلمية "وبالمنهج التاريخي في دراسة الأدب، من دراسته التاريخ ومنهجيته عند أكبر أساتذة التاريخ الفرنسيين في مطلع القرن العشرين... فراح يتشبع بالأسس التي يقوم عليها التفكير العلمي المنطقي، وبالفلسفة الموضوعية لأغوست كونت وتجلياتها المنهجية في التاريخ ثم للتأريخ للآداب... ومن

⁸ - طه حسين، تجديد ذكرى أبي العلاء، ص: 06

دراسته الأدب عند الأخوين كروازي، ثم تتلمذ على "لانسون"، فعرف المنهج التاريخي نظريةً وتطبيقاً في مختلف مصادره، وعاصر ازدهار اللانسونية وذيووعها، وكان... أحد تلاميذها الأوائل من العرب. وبديبي أن يتعلم منها الشك المنهجي وحرية الرأي والمجاهرة بأكثر الآراء جرأة وتقديس العقل⁹.

ولعل هذا الانتقال المنهجي طعم رؤيته بنوع من التعدد والموسوعية والتراسل وانعكس جلياً على مؤلفاته، مما وسم بعضها بالفاعلية القرائية، كما أن هذا الانفتاح الحوارية الذي مارسه "طه حسين" قد بلور رؤيته النقدية رغم ما كان يشوب بعضها إلا أن ذلك لم ينقص من قيمتها بل أظهره ناقداً متمكناً وقارئاً محترفاً يعي ماذا يقرأ ومتى وكيف؟ ثم إن تعدد المصادر التي نهل من معينها زودته بالذكاء الحاد والحس المرهف والذوق الرفيع الذي طبع مقارباته النقدية. فأراد إذاً أن يجمع في دراساته النقدية بين قديم تمثل في التراث الأدبي العربي وبين معارف غربية مبتدعة ومناهج علمية حديثة.

3-1- مبررات اصطناع طه حسين لمنهج الشك الديكارتية:

ويبرر "طه حسين" سبب اختياره لهذا المنهج بحكم أن "الناس جميعاً يعلمون... يوم ظهر، قد كان من أخصب المناهج وأقومها وأحسنها أثراً، وأنه قد جدد العلم والفلسفة تجديداً، وأنه قد غير مذاهب الأدباء في أدهم والفنانين في فنونهم، وأنه هو الطابع الذي يمتاز به هذا العصر الحديث"¹⁰، ويشرح الباحث للقارئ طبيعة "الشك المنهجي" ويبين "أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن، مما قيل فيه خلوا تاماً"¹¹.

⁶ عبد المجيد حنون، اللانسونية وأبرز أعلامها في النقد العربي الحديث، رسالة لنيل درجة دكتوراه الدولة في الأدب العربي، بجامعة الجزائر، معهد اللغة والأدب العربي، 1991م، ص: 190.

- طه حسين، 2004، في الشعر الجاهلي، ط4، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، ص: 21¹⁰، 22.

⁸ - المصدر نفسه، ص: 21. ينظر: رينيه ديكرت، 1988م، تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى،

ترجمة كمال الحاج، ط4، منشورات عويدات، بيروت، ص: 13.

ويضيف الباحث: "فلنصطنع هذا المنهج حين نريد أن نتناول أدبنا العربي القديم وتاريخه بالبحث والاستقصاء. ولنستقبل هذا الأدب وتاريخه وقد برأنا أنفسنا من كل ما قيل فيهما من قبل وخلصنا من كل هذه الأغلال الكثيرة الثقيلة التي تأخذ أيدينا وأرجلنا ورؤوسنا فتحول بيننا وبين الحركة الجسمية الحرة، وتحول بيننا وبين الحركة الحرة أيضا"¹².

ويظهر فيما عرض من نصوص أن "طه حسين" أراد من خلال كتابه "في الشعر الجاهلي" أن يصحح قراءة هذا الشعر، مصطنعا في ذلك منهج "الشك" الديكارتية. ولم يقف عند هذا الحد، بل كان يهدف أيضا إلى تنشيط العقلية الخاملة وضح طاقة جديدة لتفعيل الفكر وتحريه من شتى القيود، ذلك الفكر المتحجر المقدس للتراث و المتطير من كل جديد، ويظهر هذا جليا أيضا في هذه السطور؛ "هذا النحو من البحث السطحي - المنهج التقليدي - شر، لأنه قاصر ولأنه عقيم ولأنه مرغوب في الكسل، مثبط للهمم حاث على الخمول، ولأنه سبب انحطاط الحياة الأدبية..."

نحن لا نحب هذا الطريق ولا نريد أن نسلكها، بل نحن إنما نعلم ما نعلم في الجامعة، ونكتب ما نكتب في الصحف والرسائل، لنمحو آثار هذه الطريقة ونطمس أعلامها، ونمد مكانها طريقا أخرى أقوم وأوضح، وأهدى"¹³.

ومنهج الشك عند ديكارت لم يره "طه حسين" صالحا لدراسة الحياة الأدبية فحسب، بل كان يراه كذلك منهجا شاملا للحياة الإنسانية، وعدّه خصبا في الأخلاق والحياة الاجتماعية أيضا.¹⁴

وهو في ذلك يسعى جاهدا إلى تحرير الفكر النقدي من قيود أساليب التفكير القديمة، التي حوّلت المتلقين إلى "كتب قديمة متحركة أو قطع من كتب وصل

¹² - المرجع نفسه، ص: 22.

¹³ - المرجع السابق، ص: 34، 38.

¹⁴ - ينظر: طه حسين، في الشعر الجاهلي، ص: 24.

بعضها ببعض"¹⁵. وأرسى قاعدة نقدية متينة مفادها ألا يكون القارئ "أو الناقد اتباعياً أو مقلداً في هذا الجانب أو ذاك، بل يكون مجتهداً ابتكارياً"¹⁶.

وبذلك ينتقد "طه حسين" القراءة التقليدية الزائفة التي يطمئن صاحبها إلى الوثوق بكل شيء يلغي معه القارئ عقله ويستكين إلى كسل فكري مهين، لا يُفَعِّل حاضراً، ولا يغير واقعا، ولا يتطلع إلى مستقبل زاهر، فيبقى رهين الجهل والتخلف والتبعية. إنه يدعو إلى قراءة فاعلة، تتقصى وتنقد وتقارن، حتى يرى القارئ من خلالها الحدث التاريخي واضح المعالم كما كان فعلا، ويرى أيضا شخصية الشاعر كما كان حقيقة، بل أن يرى إن كان موجودا أصلا.

2- موقف طه حسين من شعراء شهر الشعراء الجاهليين:

قبل أن يعرض لنا "طه حسين" نماذج تطبيقية عن شعر أشهر شعراء العصر الجاهلي ويبين موقفه منهم ومن أشعارهم راح يجوب عمق تاريخ الأدب العربي مسلطا الضوء على كشف الظروف التي أحاطت بالشعر الجاهلي وأسباب النحل التي أصابته في مقتل، وها هو ذا يبدأ الناقد جولة مضمّنية أخرى يقلب فيها صفحات الماضي البعيد ليقف متقصيا حقيقة وجود تلك الشخصيات الشاعرة التي يعزى إليها التأسيس لمجد العرب وصناعة ديوانهم الشعري الخالد، ولم يكتف بذلك بل راح يقدم لنا عرضا لنماذج تطبيقية عن شعرهم، يدرسه في ألفاظه ومعانيه، ويضع يده على مواطن النحل فيه، وما يمكن أن تصح إضافته إلى الجاهليين من الشعر. وهذا الآن تقديم لأهم ما عرض له من تلك النماذج.

2-1- امرؤ القيس - عبيد - علقمة:

يعد امرؤ القيس من أقدم الشعراء الجاهليين، ويتقدمهم منزلة وشأنا، رفعه ابن سلام إلى أعلى طبقاته، ومكّنه من مقدمة الطبقة الأولى، فأضحى أرفع شأنًا من جميع الشعراء الجاهليين، إنه أول من وقف على الطلل واستوقف، وبكى وأبكى،

- طه حسين، (د ت)، من بعيد، (د ط)، منتدى مكتبة الإسكندرية للطبع والنشر، مصر، ص: 260.

15

16 - جابر عصفور، نوفمبر 2013، الناقد التنويري، مجلة العربي، الكويت، العدد: 660، ص: 76.

وقيد الأوابد، وشبه الخيل بالعصا والسباع والظباء والطير، وابتدع كثيرا من الاستعارات التي لم يكن شاعر قبله قد تفتن إليها، وبهذه تبعه الشعراء، ونظموا الشعر على منواله.

وهاهو "طه حسين" يذهب مذهبا آخر، مخالفا ومغايرا لما أجمع عليه النقاد في هذا الشاعر وشعره، وغيره من الشعراء الجاهليين وآثارهم. إنه مذهب الشك الذي اتخذته منهجا ليقوِّض أضخم صرح للعرب، فهو تراثهم وديوانهم الذي يعد أنموذجا للشعر العربي في جميع أطواره التاريخية. فما فحوى مسعاه؟ وما هي حججه في ذلك؟

قبل أن يلج الباحث في شعر امرئ القيس ليتبين اختلافاته وسيئاته، راح يبحث ويتقصى أصله ونسبه، فوجد فيه إبهاما صارخا وخلطا واضحا في تضارب ما تناقله الرواة في هذا الشأن. فقد تعددت أسماء امرئ القيس، وأسماء أبيه وأمه على السنة أولئك الرواة. "فقد كان اسمه امرأ القيس، وقد كان اسمه حندجا، وقد كان اسمه قيسا. وقد كان اسم أبيه عمرا، وقد كان اسم أبيه حجرا أيضا. وكان اسم أمه فاطمة بنت ربيعة أخت مُهَلِّهْل، وكان اسم أمه تَمَلِكُ. وكان امرؤ القيس يعرف بأبي الحارث. ولم يكن له ولد ذكر. وكان يئد بناته جميعا، وكانت له ابنة يقال لها هند، ولم تكن هند هذه ابنته وإنما كانت بنت أبيه"¹⁷.

احترار "طه حسين" لهذا التضارب الصارخ في هذه الروايات عن نسب امرئ القيس، ووصف هذا التناقض بالخليط المضطرب الذي لا يمكن لك أن تتبين منه حقا أو ما يشبه للحق. لكن على كل حال يذهب إلى الأخذ ما اتفق عليه كثرة الرواة الذين اتفقت آراؤهم على أن اسمه حُنْدُج بن حجر، ولقبه امرأ القيس، وكنيته أبو وهب، وأمه فاطمة بنت ربيعة. غير أن "طه حسين" لا يطمئن إلى آراء الكثرة من الرواة لأن العلم لا يستند في منهجه على هذه الكثرة. معللا ذلك بأن معظم العلماء كانوا ينكرون "كروية الأرض وحركتها، وظهر بعد ذلك أن الكثرة كانت مخطئة"¹⁸.

¹⁷ - المصدر السابق، ص: 150.

¹⁸ - المصدر نفسه، ص: 151.

لذا فإن "طه حسين" ينتمي إلى الشك في وجود هذه الشخصية، فهذا الخلط والاضطراب في الآراء عن حياة امرئ القيس أوضح دليل على ما ذهب إليه من أن امرأ القيس إن يكن قد وُجد حقاً - وهو يرجح ذلك ويكاد يوقن به- فإن الناس لم يعرفوا عنه شيئاً إلا هذا الاضطراب المحيّر في نسبه، وطائفة من الأساطير والأحاديث التي تتصل بهذه الشخصية الغامضة¹⁹.

ولم يقف "طه حسين" عند هذا الحد بل يبرر لاستنتاجه هذا، محللاً ومفسراً وهو يجوب التاريخ، ويجمع أحداثاً اتصلت بقبيلة "كندة" على عهد النبي ﷺ حتى أيام الفتنة الكبرى، وصولاً إلى حكم بني أمية، وبناء على هذه الأحداث ظهرت معظم تلك الأساطير- حسبه - في عصر الرواة المدونين والقصاصين لتمكين القبيلة من الشرف والعز، حتى تتبوأ مكانة لائقة لها بين القبائل العربية²⁰.

فهو يعرض إسلام قبيلة كندة في صدر الإسلام وردّها بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، ومحاصرتها أيام حروب الردّة في النُّجَيْرِ، وقد قُتِلَ منها خُلُقًا كثيرًا، وكان ممن نجا من تلك الواقعة "الأشعث بن قيس" الذي تاب وحسن إسلامه، وتزوج أم فروة أخت أبي بكر الصديق. وقد اشترك هذا الرجل في فتح الشام، وشهد ملاحم المسلمين في حربهم ضد الفرس، وناصر عليّاً على معاوية²¹.

وقد أشار إلى حادثة قتل معاوية جِبْرُ الأُمة حجر بن عديّ، وما تركته من آثار عميقة في نفوس المسلمين عامة واليمنيين خاصة. وكان عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وهو حفيد الأشعث بن قيس الذي ثار على الحَجَّاج، وخلع عبد الملك بن مروان عن الملك، وتسبب في حروب طاحنة بين المسلمين، وعند انهزامه لجأ إلى ملك

¹⁹ - ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

²⁰ - ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

²¹ - ينظر: المصدر نفسه، ص: 152.

الترك، فغدر به وسلّمه إلى الحجّاج، وفي طريقه إلى العراق، قتل نفسه، ثم قُطع رأسه وعُرض على الناس في شوارع بغداد ودمشق²².

ويتساءل "طه حسين" "أفتظن أن أسرة كهذه الأسرة الكِنديّة تنزل هذه المنزلة في الحياة الإسلاميّة... لا تصطنع القصص ولا تؤجر القصص لينشروا لها الدعوة وينديعوا عنها كل ما من شأنه أن يرفع ذكرها ويبعد صوتها"²³؟ ويجب بالإثبات، ويستند في ادعائه ذلك، إلى أن الرواة أنفسهم يحدثوننا "أن عبد الرحمن بن الأشعث اتخذ القصص وأجرهم كما اتخذ الشعراء وأجزلّ صلتهم: كان له قاص يقال له عمرو بن ذر، وكان شاعره أعشى همدان"²⁴.

ويواصل مؤكداً أن ما يُروى من الأخبار المتعلقة بقبيلة كِنديّة في الجاهلية متأثر بعمل أولئك الرواة القصص الذين استأجرهم الأشعث بن قيس ليعلوا شأن القبيلة. وحتى يثبت ادعاه هذا راح يوازن بين حياة عبد الرحمن بن الأشعث بقصة الملك الضليل، إذ يقول: "وقصة امرئ القيس بنوع خاص تشبه من وجوه كثيرة حياة عبد الرحمن بن الأشعث. فهي تمثل لنا امرأ القيس مطالباً بثأر أبيه. وهل ثار عبد الرحمن... إلا منتقماً لحجر بن عدي؟ وهي تمثل لنا امرأ القيس طامعاً في الملك. وقد كان عبد الرحمن بن الأشعث يرى أنه ليس أقل من بني أمية استهالاً للملك، وكان يطالب به. وهي تمثل لنا امرئ القيس متنقلاً في قبائل العرب"²⁵.

ويضيف: "... وقد كان عبد الرحمن بن الأشعث متنقلاً في مدن فارس والعراق. وهي تمثل امرأ القيس لاجئاً إلى قيصر مستعينا به. وقد كان عبد الرحمن... لاجئاً إلى ملك الترك مستعينا به. وهي تمثل لنا أخيراً امرأ القيس وقد غدر به قيصر. وقد غدر

²² - ينظر: المصدر نفسه، ص: 152، 153.

²³ - المصدر نفسه، ص: 153.

²⁴ - المصدر السابق، الصفحة نفسها.

²⁵ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

ملك الترك بعبد الرحمن... وهي تمثل لنا بعد هذا وذاك امرأ القيس وقد مات في طريقه عائداً من بلاد الروم، وقد مات عبد الرحمن في طريقه عائداً من بلاد الترك²⁶. انظر إلى هذا التطابق الكبير بين حياتين مختلفتين لشخصيتين باعد بينهما المكان والزمان، قد التحمتا واستحالتا إلى شخصية واحدة. أهذه صدفة يقرّها العقل ويثبتها العلم؟ والأكيد أن العقل لا يعترف بالصدف، و"طه حسين" لا يؤمن إلا بصرامة المنطق العلي، إلا إذا ثبت يوماً ما بالدليل العلي أن الشخصية بإمكانها أن تعيد نفسها في صورة جديدة تعكس حياة شخصية أخرى في جميع نواحيها، إذا توفرت لها أسبابها العلمية الخاصة. فلنترقب إذًا ذلك اليوم.

وينتقل بنا الآن الباحث إلى شعر امرئ القيس الذي يرى أن أكثره مُخَدَث، منحول، "محمول عليه حملاً ومختلق عليه اختلاقاً، حمل بعضه العرب أنفسهم، وحمل بعضه الآخر الرواة الذين دونوا الشعر في القرن الثاني للهجرة"²⁷. ويستدل بذلك على أن الشعر المنسوب إلى امرئ القيس قد نظم بلغة قريش، والمعلوم أن الشاعر يماني تختلف لغته عن العدنانية، وحتى ولو فرضنا أنه نشأ في قبائل عدنان، لوجدنا في شعره "لفظاً أو أسلوباً يدل على أنه يماني"²⁸، إذ لا يمكن أن تَمَّحى لغته الأولى تماماً من نفسه. بل يذهب "طه حسين" أبعد من ذلك مؤكداً أن لغة قريش ليست هي اللغة السائدة في البلاد العربية أيام امرئ القيس. "وأكبر الظن أنها لم تكن لغة العرب في ذلك الوقت، وأنها إنما أخذت تسود في أواسط القرن السادس للمسيح وتمت لها السيادة بظهور الإسلام"²⁹.

²⁶ - المصدر نفسه، ص: 153، 154.

²⁷ - المصدر نفسه، ص: 161.

²⁸ - المصدر نفسه، ص: 160.

²⁹ - المصدر نفسه، ص: 159.

ويرى "طه حسين" أن ما ورد بشأن تعليق المعلقات السبع أو العشر غير موثوق بها وأن أنصار القديم أنفسهم لم يطمئنوا إلى قصة تعليق هذه القصائد على الكعبة أو في الدفاتر. هذه "القصة التي نشأت في عصر متأخر جدا والتي لا يثبتها شيء في حياة العرب وعنايتهم بالأداب"³⁰.

وينتقل الباحث بعد ذلك داعيا القارئ إلى التأمل في معلقة امرئ القيس التي يراها من الوجهة الفنية أكثر القصائد تكلفا وتعمّلا، كما لاحظ أن الاختلاف الكبير في رواية هذه القصيدة في ألفاظها وترتيبها أفقدها وحدتها ونسقتها، مما جعل القدماء أنفسهم "يشكون في بعض هذه القصيدة فهم يشكون في صحة هذين البيتين:

ترى بعر الأرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حبُّ فُلْفُلِ

كأنني غداة البين يوم تحمّلوا لدى سَمُرَاتِ الحِي نَاقِفِ حَنْظَلِ"³¹

وكذلك يشكون في هذه الأبيات:

"وقرية أقوام جعلتُ عصامها على كاهل مني ذلول مرحل

وواد كجوف العير قفر قطعته به الذئب يعوي كالخليع المعيل

فقلت له لما عوى إن شأننا قليل الغنى إن كنت لما تمول

كلانا إذا ما نال شيئا أفاته ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل"³²

ويؤكد "طه حسين" أن هذا الاختلاف ليس "مقصورا على هذه القصيدة، وإنما يتناول الشعر الجاهلي كله. وهو اختلاف شنيع يكفي وحده لحملنا على الشك في قيمة هذا الشعر"³³. ولتبرير هذا الاختلاف، يستشهد بمتانة الشعر الإسلامي الذي يراه ذا قيمة فنية بارزة، حيث يقول "فأما الشعر الإسلامي الذي صحّت نسبته لقائله فأنا أتحدى أي ناقد أن يعيبه به أقل عبث دون أن يفسده. وأنا أزعّم أن

³⁰ - المصدر نفسه، ص: 161.

³¹ - المصدر السابق، الصفحة نفسها.

³² - المصدر نفسه، ص: 161، 162.

³³ - المصدر نفسه، ص: 162.

وحدة القصيدة فيه بينة، وأن شخصية الشاعر فيه ليست أقل ظهوراً منها في أي شعر أجنبي"³⁴.

ويمضي الباحث مواصلاً دحض شعر امرئ القيس، مشككاً في صحته، ومحاوفاً إثبات فساد بالوضع والنحل. فموقعة دار جُلْجُل -حسبه- إنما هي قصة مختلقة نقلها الرواة من شعر الفرزدق إلى معلقة امرئ القيس؛ حيث يقول في هذا الشأن أن "...الرواة يحدثوننا أن الفرزدق خرج في يوم مطير إلى ضاحية البصرة فاتبع آثاراً حتى انتهى إلى غدير وإذا فيه نساء يستحمن، فقال: ما أشبه هذا اليوم بيوم أثاره جُلْجُل، وولّى منصورفاً، فصاح النساء به: يا صاحب البغلة، فعاد إليهن فسألته وعزمن عليه ليُحَدِّثَهن بحديث داره جلجل، فقص عليهن قصة امرئ القيس وأنشدن قوله"³⁵ إلى آخر القصة:

"أَلَا رَبَّ يَوْمٍ لَكَ مَهْنٌ صَالِحٌ وَلَا سَيِّمًا يَوْمَ بَدَارَةِ جُلْجُلٍ
وَيَوْمَ عَقَرْتُ لِلْعَدَارَى مَطِيَّتِي فَيَا عَجَبًا مِنْ كُورِهَا الْمُتَحَمَّلِ
فَقَلَّ الْعَدَارَى يَزْتَمِينَ بِلَحْمِهَا وَشَحْمِ كَهْدَابِ الدِّمَقَسِ الْمُفْتَلِّ"³⁶

ويواصل الباحث كلامه بقوله: "والذين يقرؤون شعر الفرزدق ويلاحظون فحشه وغلظته...لا يجدون مشقة في أن يضيفوا إليه هذه الأبيات، فهي بشعره أشبه. وكثيراً ما كان القدماء يتحدثون بمثل هذه الأحاديث يضيفونها إلى القدماء وهم ينتحلونها من عند أنفسهم. ومهما يكن من شيء فلغة هذه الأبيات... كلها عدنانية يمكن أن تصدر عن شاعر إسلامي اتخذ لغة القرآن لغة أدبية"³⁷.

والملاحظ هنا وفي مواضع أخرى، انعدام الموضوعية في الطرح، فما قاله الناقد إنما هو مجرد شك لا يرقى إلى درجة اليقين، أو إن شئت فقل هو كلام عام

³⁴ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³⁵ - المصدر نفسه، ص: 163، 164.

³³ - صلاح الدين الهواري، (د ت)، ديوان امرئ القيس، ط1، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ص: 22.

³⁷ - طه حسين، في الشعر الجاهلي، ص: 164.

مفترض يفتقد الحجة على صحة ما ادعاه "طه حسين". فالمسألة هنا تحتاج إلى أدلة قطعية، تثبت أن الوضّاعين من الرواة قد أضافوا حقا إلى شعر امرئ القيس من شعر الفرزدق، ونسبوه إليه.

انظر هنا أيضا كيف أن بمجرد تشابه شعر امرئ القيس بشعر عمر بن أبي ربيعة في وصفه لخليليه، يجعل "طه حسين" يشكك في هذا النوع من الغزل المنسوب إلى امرئ القيس، ويعتبره منحولا أضيف من شعر ابن أبي ربيعة، وآيته في ذلك أن هذا "النحو من القصص الغرامي في الشعر فن عمر بن أبي ربيعة قد احتكره احتكارا ولم ينازعه فيه أحد. ولقد يكون غريبا حقا أن يسبق امرؤ القيس إلى هذا الفن ويتخذ فيه هذا الأسلوب ويعرف عنه هذا النحو، ثم يأتي ابن أبي ربيعة فيقلده فيه ولا يشير أحد من النقاد إلى أن ابن أبي ربيعة قد تأثر بامرئ القيس مع أنهم قد أشاروا إلى تأثير امرئ القيس في طائفة من الشعراء في أنحاء من الوصف"³⁸.

ويخلص في النهاية قائلا: "ففي هذا القصص الفاحش فن ابن أبي ربيعة وروح الفرزدق، ونحن نرجح إذا أن هذا النوع من الغزل إنما أضيف إلى امرئ القيس، أضافه رواة متأثرون بهذين الشاعرين الإسلاميين"³⁹.

صحيح أن الشعر الجاهلي أصابه نحل فاحش، وما وصلنا منه إلا القليل، وهذا من المتفق عليه، ثبت وروده في أمهات الكتب التراثية، ولكن لا يستطيع أحد أن ينفي هذا الشعر جملة وتفصيلا عن الجاهليين. و"طه حسين" يعترف بنفسه عن وعي منه أو عن غير وعي "أن أكثر هذا الشعر الذي يضاف إلى امرئ القيس ليس من امرئ القيس في شيء"⁴⁰. وبهذا يوصلنا إلى حقيقة مفادها أن هذه الكثرة المنحولة من

³⁸ - المصدر السابق، ص: 164، 165.

³⁹ - المصدر نفسه، ص: 165.

⁴⁰ - المصدر نفسه، ص: 161.

أشعاره تثبت أن امرأ القيس لا يزال يحتفظ بقليل من الشعر لم يناله النحل. وعلى هذا الأساس فإن "طه حسين" يعترف ضمناً بوجود شاعر مُقَلِّ للشعر، وهذا الشاعر اسمه امرأ القيس.

أما "عبيد" فقد وقف الباحث من شخصه وشعره، الموقف ذاته الذي اتخذه مع امرئ القيس وشعره، إذ يقول: "وليس علينا في ذلك ذنب، فالرواة لا يحدثوننا عن عبيد بشيء يقبل التصديق. إنما عبيد عند الرواة والقصاص شخص من أصحاب الخوارق والكرامات، كان صديقاً للجن والسماء معاً، عمّر عمراً طويلاً يصلون به إلى ثلاثة قرون... ولكن كل ما نقرأ من أخبار عبيد لا يعطينا من شخصيته شيئاً ولا يبعث الاطمئنان إلا في أنفس العامة أو أشباه العامة"⁴¹. ويرى أن شعره ليس "أشد من شخصيته وضوحاً. فالرواة يحدثوننا بأنه مضطرب ضائع"⁴²، ويستدل بما ذهب إليه ابن سلام في طبقاته أنه لم يبق من شعره

"إلا قصائد بقدر عشر"⁴³. ويحدثنا أيضاً أنه لا يعرف له إلا قوله:

أقفر من أهله محلوب فالقطيّات فالذنوب⁴⁴

وذهب رواة آخرون إلى أن "هذه القصيدة كاملة ويروون له شعراً آخر في هجاء امرئ القيس ومعارضته"⁴⁵. ويرى "طه حسين" أن شعر عبيد الذي عارض فيه امرئ القيس وهجا فيه كندة لا "حظّ له من صحة... وذلك أن فيه إسفافاً وضعفاً وسهولة في اللفظ والأسلوب لا يمكن أن تضاف إلى شاعر قديم"⁴⁶. ويعرض الباحث على القارئ هذه القصيدة التي مطلعها:

⁴¹ - المصدر نفسه، ص: 168.

⁴² - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁴³ - المصدر نفسه، ص: 169.

⁴⁴ - ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁴⁵ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁴⁶ - المصدر السابق، الصفحة نفسها.

يا ذا المُخَوِّفِنا بقتلِ أبِيهِ إِذْ لَأَ وَحِينَا
أَزَعَمْتَ أَنَّكَ قَتَلْتَ سِرَاتِنَا كِذْبًا وَمِينَا⁴⁷

ويدعوه إلى قراءتها، ويكفي أن يعرف أنها منحولة صنعها القصاص، وهي من أثر ما أنتجته العصبية بين اليمينيين والمضريين⁴⁸.

أما علقمة فلا يكاد الباحث يثبت له إلا قصيدتين اثنتين ومطلعهما:

طَاحَا بِكَ قَلْبٌ لِلجِسَانِ طَرُوبٌ هَلْ مَا عَلِمْتَ وَمَا اسْتَوَدَعْتَ مَكْتُومٌ⁴⁹

غير أنه يتردد في إثبات صحتها، فهو يرجح إمكانية أن تكون لهاتين القصيدتين نصيب من الصحة مع شيء من التحفظ في بعض أبيات القصيدة الثانية⁵⁰.

يخلص في الأخير إلى أن الكثرة المطلقة لشعر هؤلاء الثلاثة (امرىء القيس وعبيد وعلقمة) مصنوعة، نحلها الرواة. والغريب أن الناقد لم يثبت صحتها، ولم يبين فسادها وترك الحكم مفتوحا يتأرجح بين أصالة تلك الأشعار وزيفها، وعلى هذا الأساس يحق لنا أن نقول: إن الشك الذي لا يؤدي في النهاية إلى اليقين فهو لا يصلح أن يكون منهجا فعالا للبحث العلمي. ولعل هذا التردد وهذه الحيرة المربكة للناقد سببها انعدام مصادر تاريخية يستند إليها ليثبت ما للشعر الجاهلي وما عليه، وحتى وإن وجدت هذه المصادر فإن "طه حسين" لا يطمئن إليها لاختلاف رواياتها وتضارب أخبارها، ولذا نستنتج أن "طه حسين" لم يلتزم تطبيق منهج الشك كما تصوره ديكرت وإنما اعتمد فقط ما يخدم توجهه وغرضه من الدراسة.

2-2- عمر بن قميئة – مهلهل:

⁴⁷ - ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁴⁸ - ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁴⁹ - ينظر: المصدر نفسه، ص: 170.

⁵⁰ - ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وبنفس النهج الذي سار عليه الباحث في تقصيه سيرة امرئ القيس، وعبيد، وعلقمة، وما نسب إليهم من أشعار، يتناول هذين الشاعرين: عمرو بن قميئة، ومهلل وما اتصل بهما من شعر.

يرى "طه حسين" أن عمرو بن قميئة قد ضاع نسبه من الذاكرة كما ضاع امرؤ القيس، "ولم يعرف من أمره شيء إلا اسمه هذا كما لم يعرف من أمر امرئ القيس ولا من أمر عبيد إلا اسمهما، ووضعت له قصة كما وضعت لكل من صاحبيه قصة، وحُمل عليه شعر كما حمل على صاحبيه الشعر أيضا"⁵¹.

ومما يرويه الرواة عن عمرو بن قميئة أنه كان جميلاً بهي الطلعة، وقد عاش يتيماً فرباه عمّه، ولما اشتد عوده كلفت به زوجة عمه، وراودته على نفسه، لكنه رفض وامتنع عنها وفاء لعمه، فكادت له وأخبرت زوجها كذبا وبهتاناً، عما كان يُضمّر لها الفتى من كيد، فغضب عمه عليه غضباً شديداً. ولم يجد الشاب من حيلة إلا الاعتذار لعمه واستعطافه إياه في شعر قال فيه:

خَلِيلِي لَا تَسْتَفْجِلَا أَنْ تَزُودَا وَأَنْ تَجْمَعَا سَمَلِي وَتَنْتَظِرَا غَدَا
فَمَا لَبِثِي يَوْمًا بِسَائِقٍ مَغْنَمٍ وَلَا سَرَعَتِي يَوْمًا بِسَائِقَةِ الرَّدِي

وَأَنْ تَنْظُرَا فِي الْيَوْمِ أَقْضِي لِبَانَةَ وَتَسْتَوْجِبَا مِنَّا عَلِيَّ وَتُحْمَدَا
لَعَمْرُكَ مَا نَفْسٌ بَجْدَ رَشِيدَةٍ تُؤَامِرُنِي سِوَاءَ لِأَصْرَمِ مُرْشِدَا
وَأَنْ ظَهَرَتْ مِنِّي قَوَارِصُ جَمَّةٍ وَأُفْرَغَ مِنْ لُؤْمِي مَرَارًا وَأُصْعَدَا
عَلَى غَيْرِ جُرْمٍ أَنْ أَكُونَ جَنِيئُهُ سِوَى قَوْلِ بَاغٍ كَادَنِي فَتَجْهَدَا

ويخلص الناقد بكل بساطة محكما انطباعه إلى "أن النظر في هذه القصيدة يكفي ليقنع القارئ بأننا أمام شيء منتحل متكلف لا حظ له من صدق"⁵².

ويأتي الباحث بعد ذلك إلى شاعر آخر وهو مهلهل خال امرئ القيس ويضمه إلى الجماعة الضائعة بين صفحات التاريخ التي مزقتها روايات متضاربة. "فليست

⁵¹ - المصدر نفسه، ص: 172.

⁵² - المصدر السابق، ص: 174.

شخصية مهلهل بأوضح من شخصية امرئ القيس أو عبيد أو عمرو بن قميئة. وإنما تركت لنا قصة البسوس منه صورة هي إلى الأساطير أقرب منها إلى أي شيء آخر"⁵³. فطه حسين يرى أن مهلهلا ما تكثر في شعره، "وإنما تكثرت تغلب في الإسلام ونحلته ما لم يقل. ولم تكتف بهذا الانتحال بل زعمت أنه أول من قصّد القصيد وأطال الشعر"⁵⁴. مخالفا بذلك ما ذهب إليه ابن سلام من أن مهلهلا كما كانت تراه العرب متكثرا في شعره ويدّعي فيه أكثر ما يعمل.

ويضيف "طه حسين" أن الرواة أنفسهم يحسون كما نحن الآن أن في هذا الشعر اضطرابا كثيرا، لذا يزعمون أنه سُمّي مهلهلا لأنه هَلْهَلَ الشعر، أي جعله مختلطا ومضطربا⁵⁵. ويعمّم هذا الحكم على كل الشعر الجاهلي بقوله: "غير أننا نستطيع أن نطمئن إلى أن هَلْهَلَ شعراء الجاهلية جميعا الشعر بحيث يصبح لكل واحد منهم شخصيات شعرية مختلفة تتفاوت في القوة والضعف وفي الشدة واللين وفي الإغراب والسهولة"⁵⁶. ويخلص إلى أن الشعر هَلْهَلَ الذين وضعوه من القصاص والمنتحلين وأصحاب التنافس والخصومة بعد الإسلام"⁵⁷.

انظر هنا كيف أن "طه حسين" يجنح إلى تحكيم الانطباع على حساب توظيف صرامة العلم في الحكم على اضطراب الشعر وفساده، ومن هنا نؤكد أن "طه حسين" مدرك تمام الإدراك أن المنهج العلمي الذي يعتمده "تأريخ الأدب" عاجز

⁵³ - المصدر نفسه، ص: 176، 177.

⁵⁴ - المصدر نفسه، ص: 177.

⁵⁵ - ينظر: المصدر نفسه الصفحة نفسها.

⁵⁶ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁵⁷ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

على رصد الظاهرة الأدبية كما ينبغي، لذا فإنه "مضطر معها إلى الذوق"⁵⁸. المتمثل في تلك "الملكات الشخصية الفردية التي يجتهد العالم أن يتحلل منها"⁵⁹. إذن فبمجرد النظر إلى قصيدة عمرو بن قميئة يتضح للقارئ أن شعرها منحول، كما يكفي أن نحس كما يحس الرواة لنعرف أن شعر مهلهل مُهْلَهْلٌ، وأن الشعر الجاهلي كله مختلط ومضطرب، فطه حسين قد أبدى أهمية بالغة للذوق، من خلاله حدد موقفه من علاقة العلم بالنقد والأدب بوضوح. فحضور الذوق ضرورة يقتضيها النقص الذي يواجهه العالم الناقد.

2-3- عمرو ابن كلثوم - المتلمس - طرفة ابن العبد:

ويستمر "طه حسين" في البحث لا يحيد عن مسعاها، في تقصي حقيقة ديوان العرب، ليضع كل شعراء العصر الجاهلي في سلة واحدة، فلا يُبْرَأُ من النحل والفساد أيًا من أشعار أولئك الجاهليين، بل تعدى إلى التشكيك في وجود الكثير من شخصيات شعراء ذلك العصر.

فهذا عمرو بن كلثوم قد ارتبطت حياته "منذ بدايتها بالأساطير التي تحاك لتتوافق مع سيرة حياته التاريخية التي روتها كتب التاريخ، وكأن الرجل قد أُعدَّ غيبيا ليكون سيد تغلب"⁶⁰. وكان هذا حين تنبأ جده مهلهل بقدمه، عندما همَّ بواد أمه وهي لا تزال رضيفة، فعفا عنها، ثم رباها وسماها أسماء، ولما كبرت تزوجت كلثوم بن مالك، وولدت له عمرو.

⁵⁸ - طه حسين، 1933م، في الأدب الجاهلي، ط: 3، مطبعة فاروق، القاهرة، ص: 29.

⁵⁹ - المصدر نفسه، ص: 29.

- مفيد قميحة، 2008م، شرح المعلقات السبع، (د ط)، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، ص:

⁶⁰ 206.

لكن رغم تلك الأساطير التي أحيطت بحياة عمرو بن كلثوم إلا أن الباحث لم ينكر شخصية هذا الشاعر، استنادا إلى ما ذكره صاحب الأغاني "بأن له عَقَبًا كان باقيا إلى أيامه"⁶¹. غير أنه يعتبر أن "المعلّقة التي تنسب إليه لا يمكن... أن تكون كثرتها جاهلية"⁶². ويرجع ذلك إلى اختلاف الروايات؛ فأنت حين تتناول المعلّقة تجد فيها اضطرابا وخطا، "ترى فيها أبياتا مكررة تقع في وسط القصيدة وفي آخرها... فإذا قرأت القصيدة نفسها فستجد فيها لفظا سهلا لا يخلو من جزالة، وستجد فيها معاني حسانا وفخرا لا بأس به لو لا أن الشاعر يسرف فيه من حين إلى حين إسرافا ينتهي به إلى السخف كقوله:

إذا بَلَغَ الرِّضِيعُ لَنَا فِطَامَا تَخِرُّ لَهُ الْجِبَابُ سَاجِدِينَا"⁶³

ويشك "طه حسين" في صحة هذا البيت الذي عدّه منحولا:

ألا لا يجهلنَّ أحدٌ عَلَيْنَا فَتَجْهَلِ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

فهذا البيت- حسبه- "لا يمثل سلامة الطبع البدوي وإعراضه عن تكرار الحروف إلى هذا الحد الممل... فقد كثرت هذه الجيمات والهئات واللامات واشتد هذا الجهل حتى مُلِّ. وهم - الرواة - يحملون على ابن كلثوم بيتا فيه مثل هذا النوع من التعسف"⁶⁴.

لم يطمئن "طه حسين" إلى جاهلية معلقة عمرو بن كلثوم، لأن "فيها من رقة اللفظ وسهولته ما يجعل فهمها يسيرا على أقل الناس حضا من العلم باللغة العربية في هذا العصر الذي نحن فيه، وما هكذا كانت تتحدث العرب في منتصف القرن السادس للمسيح وقبل ظهور الإسلام بما يقرب من نصف قرن"⁶⁵. وعرض على

⁶¹ - طه حسين، في الشعر الجاهلي، ص: 182.

⁶² - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁶³ - المصدر نفسه، ص: 184.

⁶⁴ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁶⁵ - المصدر نفسه، ص: 185.

القارئ الكثير من أبيات القصيدة، داعيا إياه إلى قراءتها ليشاركه انشغاله. ومن هذه الأبيات ما يلي:

"قِفِي قَبْلَ التَّفْرِقِ يَا ظَعِينَا تُخْبِرِكَ الْيَقِينُ وَتُخْبِرِينَا
قِفِي نَسْأَلُكَ هَلْ أَحْدَثْتَ صَرْمًا لَوْ شَكَ الْبَيْنُ أَمْ حُنَّتِ الْأَمِينَا
بِيَوْمِ كَرِيهَةٍ ضَرَبْنَا وَطَعْنَا أَقْرَبَ بِهِ مَوَالِيكَ الْغَيْوِنَا
وَإِنَّ غَدًا وَإِنَّ الْيَوْمَ رَهْنٌ وَبِعُدِّ غَدٍ بِمَا لَا تَعْلَمِينَا"⁶⁶

يبدو أن "طه حسين" كان موضوعيا، منصفًا إلى حد كبير في تعامله مع عمرو بن كلثوم، فلم يُلغ شخصيته، وأقر بوجودها، كما أنه لم يرفض شعره جملة وتفصيلا، وقد بين تلك الاختلافات التي اعترت الكثير منه نتيجة للنحل الذي أصابه. وبهذا يقر بأن بعض هذا الشعر قد حافظ على أصالته، ولم يطله عبث الرواة الوضّاعين.

ويحيلنا الباحث بعد ذلك إلى شاعرين مهمين من ربعة، وهما المتلمس وطرفة بن العبد اللذان تجمعهما قرابة، حيث كان المتلمس خال طرفة. واختلفت القصص بشأنهما، وتضاربت الروايات، حتى لا تكاد تظفر من حياتهما إلا الشيء القليل. ويذكر "طه حسين" أن الرواة المحققين عدّوا هذين الشاعرين من المقلين. فابن سلام لم يثبت للمتلمس شيئا، أما طرفة فقد عدّه فحلا من فحول الشعراء، لكن ضاع من شعره الكثير، وحُمل عليه حمل ليس بالقليل، ورغم ذلك أقرّ له بمطولته:

لِحَوْلَةِ أَطْلَالٍ بِرُقَّةٍ تَهْمِدِ وَقَفْتُ بِهَا أَبْكِي وَأَبْكِي إِلَى الْغَدِ⁶⁷

⁶⁶ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها. - ينظر: مفيد قميحة، شرح المعلقات السبع، ص: 218.

⁶⁷ - ينظر: طه حسين، في الشعر الجاهلي، ص: 192.

وعرف له أيضا "قصائد أخرى لم يدل عليها. وقال إنه أشعر الناس بوحدة. يريد المعلقة... ثم مقطوعات أخرى بذات غنى"⁶⁸. لكن "طه حسين" يرى أن هذا الشعر الذي ينسب لطرفة أشبه بشعر المضرين منه بشعر الربيعين الذي من خصائصه "السهولة التي تبلغ الإسفاف أحيانا... فكيف شد طرفه عن شعراء ربعة جميعا فقوي متنه واشتد أسره وأثر من الإغراب ما لم يؤثر أصحابه ودنا من شعر المضرين"⁶⁹؟

لم يترك الباحث طرفه عند هذا الحد، بل راح يتبع شعره بمعية القارئ ويتقصاه، داعيا إياه إلى النظر في هذه الأبيات التي تصف الناقة:

"وإني لأمضي الهَمَّ عند احتضاره
بعوجاء مِرْقال تروح وتغت
يأمون كألواح الأرانِ نصأتها
على لأحب كأنه بُرْجد
جمالية وجناء تردى كأنه
سفنجة تَبْري لأزعر أُرْبد
تبارى عتاقا ناجيات وأتبع
وظيفا وظيفا فوق مَور معبَد"⁷⁰

ويضطر "طه حسين" وهو يتابع طرفه ماضيا في وصف ناقته، إلى أن يفكر فيما قاله من قبل "أن أكثر هذه الأوصاف أقرب إلى أن يكون من صنعة العلماء باللغة منه إلى أي شيء آخر"⁷¹. دون أن يقدم أي تفاصيل عن ذلك، أي فيم تتمثل هذه الصنعة؟ ولماذا لجأ العلماء إليها؟

ويدعو الباحث القارئ إلى قراءة هذه الأبيات:

ولست بحلال التلاع مخافة
ولكن متى يسترفد القوم أرفد
فإن تبغي في حلقة القوم تلقني
وإن تلتمني في الحوانيت تصطد

⁶⁸ - المصدر نفسه، ص: 193.

⁶⁹ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁷⁰ - المصدر نفسه، ص: 193.

⁷¹ - المصدر نفسه، ص: 194.

متى تأتيني أُصبحك كأسا رويّة وإن كنتَ عنها ذا غنى فاغنّ وأزدد
وإن يلتقي الحي الجميغُ تلاقيني إلى ذروة البيت الشريف المصمّد

نداماي بيضٌ كالنجوم وقينهٌ تروح إلينا بين برد ومجسّد
رحيبٌ قطابُ الجيب منها رقيقةٌ بجسّ الندامى بضّة المتجرّد

إذا نحن قلنا أسْمِعِينَا انْثَبَرْت لَنَا على رِسلها مطرُوقَة لم تشدّد
ويعلّق الناقد على هذه الأبيات، مخاطبا القارئ قائلا: "اقرأ... فسترى في هذه
الأبيات لنا ولكن في غير ضعف، وشدة ولكن في غير عنف. وسترى كلاما لا هو
بالغريب الذي لا يفهم، ولا هو بالسوقي المبتذل، ولا هو بالألفاظ قد رصفت رصفا
دون أن تدل على شيء"⁷².

ويخلص "طه حسين" مرجحا أن شعر طرفة صنفان: شعر منحول صنعه
علماء اللغة، وشعر "صدر عن شاعر حقا هو هذه الأبيات وما يشبهها"⁷³. ويلتبس
على الباحث الأمر فلا يدري، أطفرة هو قائل ذلك الشعر أم قاله شاعر آخر؟ أهو
جاهلي أم إسلامي؟ وبهذا يشكّ في نسبة تلك القصيدة إلى طرفة ابن العبد⁷⁴. ولا
يقدم لنا دليلا واضحا ومقنعا.

أما المتلمس فيعيب على شعره الإسفاف والابتدال، ويكفي القارئ -حسبه- أن
يقرأ سينيته التي أولها:

يا آل بكر ألا لله أمكم طال الثّواء وثوب العجز ملبوس

⁷² - المصدر السابق، الصفحة نفسها.

⁷³ - المصدر نفسه، ص: 196.

⁷⁴ - ينظر: المصدر نفسه الصفحة نفسها.

حتى يعرف ما فيها من تكلف ظاهر، يحسّه القارئ في قافيتها. ويرى أن هذه القصيدة مضطربة الرواية، مما يجعلها معرضة للخلط، الذي يفقدها عدم الثبات في وحدتها، فيقدم آخرها في أولها وقد يروى مطلعها:

كَمْ دُونَ مَيَّةٍ مِنْ مَسْتَعْمَلٍ قَذَفَ وَمِنْ فَلَاةٍ بِهَا تَسْتُدْوِعُ الْعَيْسُ⁷⁵

ويرى أن "للمتلمس قصيدة أخرى ليست أجود ولا أمتن من هذه، ولعلها أدنى

منها إلى

الرداءة، وهي التي مطلعها:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَرْءَ رَهْنٌ مَنِيَّةٌ صَرِيحٌ لِعَافِي الطَّيْرِ أَوْ سَوْفَ يَرْمَسُ

فَلَا تَقْبَلَنَّ ضَيْمًا مَخَافَةَ مَيْتَةٍ وَمَوْتُنْ بِهَا حُرًّا وَجِلْدُكَ أَمْلَسُ⁷⁶

وينتهي الباحث إلى "أن كل ما يضاف إلى المتلمس من شعر - أو أكثره على أقل

تقدير- مصنوع، الغرض من صنعته تفسير طائفة من الأمثال وطائفة من الأخبار

حفظت في نفوس الشعب عن ملوك الحيرة وسيرتهم"⁷⁷. ولم يقف عند هذا الحد بل

راح يشكك في شخصية المتلمس، غير مستبعد أنه اخترع اختراعا لتفسير تلك الأمثال

التي عدّها من الأساطير الشعبية التي أشار إليها سابقا⁷⁸.

ومما سبق ذكره يصل بنا الباحث إلى أن طرفة الذي عدّه الرواة من فحول

الشعراء، إنما شعره مصنوع منحول لا خير فيه. والمؤكد أن انتفاء الشعر عن قائله

بالنحل، هو نفي لوجود تلك الشخصية التي لم تقل شيئا. أما المتلمس، رغم ما

التمس له الرواة من شعر، إلا أن الباحث عدّه شعرا رديئا منحولا ليس من الشعر

⁷⁵ - ينظر: المصدر نفسه، ص: 197.

⁷⁶ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁷⁷ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁷⁸ - ينظر المصدر نفسه، ص: 197، 198.

الجاهلي في شيء، بل راح ينفى وجود هذه الشخصية أصلاً. فهو إذن شاعر لا شعر له، بل إن شئت فقل: هو شعر لا شاعر له.

إن هذه الأدلة التي اعتمدها "طه حسين" في تبرير نظريته في نحل الشعر الجاهلي إنما هي معطيات تاريخية موثقة اتخذها الأولون من النقاد العرب الأقدمين محققة في مصادر معروفة لا يستطيع أحد إنكارها، فكل ما قيل بشأن هذا الموضوع إنما يعد دليلاً كافياً لا مجال للشك فيه على حقيقة نحل الشعر الجاهلي، وبالتالي فطه حسين لم يشك في مصداقية الشعر الجاهلي إلا كما شك فيه الأولون كأمثال بن سَلام والأصمعي والجاحظ وغيرهم.

ويتوصل "طه حسين" من خلال منهج الشك إلى نتيجة نهائية مفادها أن كثرة تلك الأشعار التي تنسب للجاهليين إنما هي بضاعة مزيفة قد فقدت مصداقيتها وأصالتها. فهذه الأشعار التي يسمّوها الناس شعراً جاهلياً، يصف الناقد كثرتها في قوله: أنها "لا تمثل شيئاً ولا تدل على شيء إلا ما قدّمنا من العبث والكذب والانتحال"⁷⁹، وهذا ما ذهب إليه بن سلام في طبقاته، إذ يقول: "وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه"⁸⁰. وأكثرية هذا الشعر المنحول كما يصفه بأنه فقد كل مواصفات الشعر الأصيل؛ ف"...لا حجة في عريبة، ولا أدب يستفاد، ولا معنى يُستخرج، ولا مثل يضرب، ولا مديح رائع، ولا هجاء مقذع، ولا فخر مُعجب، ولا نسيب مستطرف"⁸¹.

ورغم التردد والالتباس والحيرة التي أربكت الناقد في استدلاله على ما ادعاه، لعدم توافق وانسجام تطبيق آليات المنهج العلمي مع طبيعة الأدب مما جعله يجنح

⁷⁹ - المصدر السابق، ص: 202.

- محمد بن سلام الجمعي، (د ت)، طبقات فحول الشعراء، ج 1، (د ط)، تقديم محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ص: 04.

⁸¹ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

في كثير من الأحيان إلى الانطباع، إلا أنه لم ينكر أصالة الشعر الجاهلي جملة، فأكثرية الشعر الجاهلي عنده ليست من الجاهلية في شيء، لتعرضها للوضع والانتحال، ولذا فهو يقر بأن هناك قلة من الشعر الجاهلي لم ينلها عبث هذا النحل. ومن الواضح أن "طه حسين" كان هدفه من هذا البحث ليس موجهها أساسا إلى دراسة وتحليل الشعر الجاهلي وإنما كان يهدف إلى ضرورة استحداثه لمنهج البحث، حيث يؤكد في هذا الكتاب أنه لم يقصد إلى دراسة الشعراء ولا إلى أن يحلل شعرهم وإنما قصد إلى أن يُسْطَرَّ رأيه في طريقة دراسة هذا الشعر الجاهلي وهؤلاء الشعراء الجاهليين. وقد بلغ من ذلك ما يريد⁸².

ويبدو أن "طه حسين" لا يكرر في يومه ما كتب في أمسه، ومن له هذه الراحة التي تبيح له أن يستحضر ما مضى، وهو رجل مدفوع دائما إلى الأمام لا يستطيع أن يقف، ولا أن يهدأ ولا أن يستقر، ولا يكاد يحسن التفكير فيما سيستقبل به من الأمر كلما تقدمت به ساعة من ساعات النهار أو ساعات الليل⁸³؟ لذا لم يلتفت "طه حسين" بعد ذلك إلى هذا الإنكار الشديد لبعض شخصيات الشعراء الجاهليين وللشعر الجاهلي بصفة عامة، لكن ما لا يستطيع أحد إنكاره ومناقشته هو فعالية البحث العلمي عنده وتحرره من سيطرة الفكر التقليدي، ومن ثم كانت لدراسته تلك صدى كبيرا وأثرا واضحا في مسار النقد الأدبي المعاصر.

إن ما اصطنعه "طه حسين" من منهج لدراسة تاريخ الأدب العربي وخاصة "منهجه في دراسة تاريخ الأدب الجاهلي كان ذا أثر بالغ في بعث الأدب الجاهلي وفي استجلاء خصائصه وفي لفت نظر الناس إلى ما يلابس تاريخه من ظنون. ويعتري نصوصه من شكوك في واقعه أو صحة نسبته أو في الأسباب والعوامل التي أدت إلى

⁸² - ينظر: طه حسين، في الشعر الجاهلي، ص: 198.

⁸³ - ينظر طه حسين، 1969م، من حديث الشعر والنثر، ط: 10، دار المعارف، مصر، ص: 04.

خلقه أو اختلاقه. وما كان ذلك يتم على الصورة التي تم عليها لو لا منهج "طه حسين" وأسلوبه في البحث"⁸⁴.

ويرى الدكتور علي الوردي (1913-1995)* أن تلك الضجة التي أحدثها النقاد على طه حسين وكتابه "هي التي أسبغت عليها تلك الأهمية الكبرى"⁸⁵ كما يرى أن "من أسباب هذا التطور الهائل في العلم الحديث هو أنه -أي طه حسين- سلك طريق الشك وخلع عن نفسه تلك النزعة العتيقة التي من شأنها تجميد المعرفة ووقفها عند الرأي الذي لاشك فيه. ولهذا أصبحت الليالي حبل بالآراء الجديدة في كل حين، ولا يكاد يظهر رأي حتى يظهر وراءه رأي آخر ضده. وهكذا ينمو العلم يوماً بعد يوم".⁸⁶

ولذا يخطئ الكثيرون الذين يتصورون "أن ثورة طه حسين الفكرية والأدبية كانت مجرد حدث تاريخي توقف عن الفعل والانفعال، أو مادة منتهية، أو زمنا ميتا، إنها جسر ممدود على كل الأزمنة... إن حرية طه حسين ليست حرية جيل مضى،

- عبد الرزاق محي الدين، 1974م، طه حسين، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، المجلد: 24،
ص: 05.⁸⁴

*-مفكر وناقد أدبي واجتماعي عراقي. دَرَسَ الثانوية في العراق ونال البكالوريا في لبنان بالجامعة الأمريكية وأتم دراسته العليا بأمريكا. نال شهادة الماجستير من خلال دراسة في "سوسيولوجية الإسلام"، وشهادة الدكتوراه في "نظرية المعرفة عند ابن خلدون". وقد امتلك الرجل في عهده الصراحة والجرأة كما امتلكها طه حسين، مما عرضة للنقد اللاذع وصل إلى حد اتهامه بالكفر من قبل المفكرين والجهلة وأنصاف المثقفين.

- صباح جمال الدين، 2015م، علي الوردي نقد كتاب في الشعر الجاهلي لطله حسين، ط1، الوراق
للنشر والتوزيع، بغداد، ص: 54.⁸⁵

- المرجع نفسه، ص: 94.⁸⁶

وإنما هي حرية كل جيل يقود حركة العصيان على معوقات الحياة والإنسان، على كل فكر تصلبت شرايينه وأدركته الشيخوخة فأصبح ثمرة من الخشب لا عصير فيها"⁸⁷. ويرى الدكتور إسماعيل سراج الدين* أنه من المجحف أن تثار تلك الضجة العنيفة ويُساء تفسيرها من قبل الكثير من النقاد، "قلم يكن هدف الناقد هدم الشعر الجاهلي أو قتله، وإنما كان هدفه إنقاذ الشعر والتحقق مما فيه من صدق، وهو لم يقصد إلى إحداث خلخلة في نظام الأشياء بقدر ما قصد إلى تنبيه الجهاز العصبي للدارسين والباحثين وإخراجهم من تحت رماد التخلف وخرائبه"⁸⁸.

وفي الختام نقول: إن الهجمة الشرسة التي طالت "طه حسين" وكتابه "في الشعر الجاهلي" لم تنقص من قيمته شيئا، بل زادتة فعالية وأعطته وزنا كبيرا: فبنقض الكتاب نشطت الحركة الفكرية وازدهرت، وأثرت الساحة النقدية بدراسات واعدة، لذا لم تكن آثار "طه حسين" حبيسة اللحظات الراهنة، بل هي روح ممتدة في أوصال الحياة الأدبية العربية الحديثة، فطه حسين قد فعلَ ونشَطَ وتيرة الحياة النقدية الأدبية العربية الحديثة، حيث اتصلت كثير من الدراسات الأدبية المعاصرة بدراساته، إثباتا لها أو نقضا، مناصرة، أو مناهضة، واجتمعت بذلك للمكتبة العربية مصادر مهمة للأدب الجاهلي، لم تكن لها بها عهد من قبل.

الخاتمة:

⁸⁴ - إسماعيل سراج الدين، 2006م، لطفي عبد الوهاب، طه حسين معلم الأجيال، (دط)، مكتبة الاسكندرية، مصر، ص: 24.

* مفكر وناقد مصري من مواليد الجيزة سنة 1944م. حصل على درجة الماجستير بامتياز عام 1968م عن "التخطيط الإقليمي" من جامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية. ونال درجة الدكتوراه من نفس الجامعة عام 1972م عن "دور التعليم في التنمية" من مؤلفاته: "تعزيز التنمية" 1995م، "الاستدامة وثروات الأمم" 1996م، "شكسبير عصرنا" 1998م وغيرها.

⁸⁸ - المرجع نفسه، ص: 27.

توصلنا مع "طه حسين" في تحليله لشعر أشهر شعراء العصر الجاهلي إلى نتائج نلخصها فيما يلي:

نظرا للخلط والاضطراب في الآراء عن حياة امرئ القيس والأساطير والأحاديث التي تتصل بهذه الشخصية التي وصفها بالغامضة يشك "طه حسين" في وجود هذه الشخصية، وراح يدعم ادعاءه هذا موازنا بين حياة عبد الرحمن بن الأشعث بقصة الملك الضليل، حتى انتهى إلى أن تشابه قصتهما دليل كاف على أن الوضاعين من الرواة قد اختلقوا قصة امرئ القيس، ولكنه عندما قام بتحليل شعره لم يستطع أن يثبت أن كل الأشعار التي نسبت لهذا الشاعر قد أصابها النحل، ومن هنا أثبت عن وعي أو عن غير وعي وجود شخصية مقلدة للشعر اسمها "امرؤ القيس".

أما "عبيد" فقد وقف الباحث من شخصه وشعره، الموقف ذاته الذي اتخذه مع امرئ القيس وشعره، فشخصيته هي أيضا ارتبطت بالكرامات والأساطير، ويرى كذلك أن شعره أشد غموضا من شخصيته، ويستدل على ذلك بما حدثنا به الرواة بأن شعره مضطرب ضائع، فيه إسفافا وضعفا وسهولة في اللفظ والأسلوب لا يمكن أن تضاف إلى شاعر قديم.

أما علقمة فلا يكاد الباحث يثبت له إلا قصيدتين اثنتين ومطلعهما:

طَحَا بِكَ قَلْبٌ لِلْجِسَانِ طَرُوبٌ هَلْ مَا عَلِمْتَ وَمَا اسْتَوْدَعْتَ مَكْتُومٌ

غير أنه يشك في صحتها، فهو يرجح إمكانية أن تكون لهاتين القصيدتين نصيب من الصحة مع شيء من التحفظ في بعض أبيات القصيدة الثانية.

ويخلص في الأخير إلى أن الكثرة المطلقة لشعر هؤلاء الثلاثة (امرئ القيس وعبيد وعلقمة) مصنوعة، نحلها الرواة. والغريب أن الناقد لم يثبت صحتها، ولم يبين فسادها وترك الحكم مفتوحا يتأرجح بين أصالة تلك الأشعار وزيفها، وعلى هذا الأساس يحق لنا أن نقول: إن الشك الذي لا يؤدي في النهاية إلى اليقين فهو لا يصلح

أن يكون منهجا فعالا للبحث العلمي، وبذلك فإن "طه حسين" لم يلتزم تطبيق منهج الشك كما تصوره ديكرت وإنما اعتمد فقط ما يخدم توجهه وغرضه من الدراسة. ويتناول الباحث الشاعرين: عمرو بن قميئة، ومهلل وما اتصل بهما من شعر، بنفس الطريقة التي سار عليها في تقصيه سيرة امرئ القيس، وعبيد، وعلقمة، وما نسب إليهم من أشعار.

وتوصل "طه حسين" إلى أن عمرو بن قميئة قد ضاع نسبه من ذاكرة التاريخ كما ضاع امرؤ القيس، حيث وضعت له قصة كما وضعت لكل من امرئ القيس وعبيد قصة، وحُمل عليه شعر كما حمل على صاحبيه الشعر أيضا.

ويخلص الناقد بكل بساطة محكّما ذوقه أن القارئ يكفيه النظر في شعر عمرو بن قميئة ليقنع بأنه أمام شيء موضوع متكلف لا حظاً له من صدق.

ويضم الباحث مهلهلا خال امرئ القيس إلى أصحابه في سلة واحدة، إذ إن شخصيته ليست بأوضح من شخصية امرئ القيس أو عبيد أو عمرو بن قميئة، حيث إنها ضاعت بين صفحات التاريخ التي مزقتها روايات متضاربة، وقد تعلقت هي أيضا بالأساطير، ويذهب إلى أن مهلهلا ما تكثّر في شعره، وإنما تكثرت قبيلة تغلب في الإسلام ونحلتها ما لم يقل، وادعت أنه أول من قصّد القصيد وأطال الشعر وينتهي "طه حسين" إلى تحكيم الانطباع في أننا نحس الآن كما يحس الرواة أنفسهم أن في هذا الشعر خلطا مضطربا، لذا وصفوه بمهلل الشعر، أي جعله مختلطا ومضطربا.

أما عن عمرو بن كلثوم فكان "طه حسين" موضوعيا، منصفا إلى حد كبير في تعامله معه، فلم يبلغ شخصيته، وأقر بوجودها، كما أنه لم يرفض شعره جملة وتفصيلا، وقد بين تلك الاختلافات التي اعترت الكثير منه نتيجة للنحل الذي أصابه. وبهذا يقر بأن بعض هذا الشعر قد حافظ على أصالته، ولم يطله عبث الرواة الوضّاعين.

أما ما تعلق بالشاعر "طرفة ابن العبد" الذي عدّه الرواة من فحول الشعراء، فيتوصل الباحث إلى أن شعره مصنوع منحول لا خير فيه. والمؤكد أن انتفاء الشعر عن قائله بالنحل، هو نفي لوجود تلك الشخصية التي لم تقل شيئا.

أما فيما يخص المتلمس؛ رغم ما التمس له الرواة من شعر، إلا أن الباحث عدّه شعرا رديئا منحولا ليس من الشعر الجاهلي في شيء، بل راح ينفي وجود هذه الشخصية أصلا، فهو شاعر لا شعر له، أو هو شعر لا شاعر له.

الملاحظ أن الباحث كان مفرطا في ارتكازه على الأساطير والكرامات ليبرر شكه في وجود شخصيات الشعراء الجاهليين، وقد جنح كثيرا إلى تحكيم الذوق في تحليله الشعر الجاهلي، وهذا ما يناقض العقل ويرفضه العلم، وبذلك لم يطاوعه منهج الشك الديكارتي في تحليل الظاهرة الأدبية وأدرك أن الأدب ليس بالعلم الخالص ولا هو بالفن المحض لذا يجب تحكيم الذوق في استكناه أغوار النص الأدبي من جهة واصطناع المنهج العلمي إذا ما وجد الناقد إلى ذلك سبيلا.

لكن رغم هذا الإرباك الذي أصاب البحث إلا أن "طه حسين" لم ينكر أصالة الشعر الجاهلي جملة، حيث اعتبر أن أكثرية الشعر الجاهلي عنده ليست من الجاهلية في شيء، لتعرضها للوضع والانتحال، ولذا فهو يقر بأن هناك شعر جاهلي لم ينله عبث الوضاعين وإن كان قليلا.

ورغم ذلك كله لم تنل الهجمة الشرسة التي طالت "طه حسين" وكتابه "في الشعر الجاهلي" من قيمته شيئا، بل زادت فعاليته وأعطته وزنا كبيرا؛ فبنقض الكتاب نشطت الحركة الفكرية وازدهرت، وأثرت الساحة النقدية بدراسات واعدة كان لها أثر كبير في الساحة النقدية الأدبية العربية الحديثة.

المراجع:

- 01- مصطفى الصافي الجويني، (د ت)، أبعاد في النقد الأدبي الحديث، (د ط)، منشأة المعارف، الإسكندرية.
- 02- طه حسين، 1958م، تجديد ذكرى أبي العلاء، ط5، دارالمعارف، مصر.
- 03- أحمد علي، 1985م، طه حسين رجل فكر وعصر، (د ط)، دار الآداب، بيروت.
- 04- عبد المجيد حنون، اللانسونية وأبرز أعلامها في النقد العربي الحديث، رسالة لنيل درجة دكتوراه الدولة في الأدب العربي، بجامعة الجزائر، معهد اللغة والأدب العربي، 1991م.
- 05- طه حسين، 2004م، في الشعر الجاهلي، ط4، دارالمعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس.
- 06- رينيه ديكارت، 1988م، تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، ترجمة كمال الحاج، ط4، منشورات عويدات، بيروت.
- 07- طه حسين، (د ت)، من بعيد، (د ط)، منتدى مكتبة الإسكندرية للطبع والنشر، مصر.
- 08- جابر عصفور، نوفمبر 2013، الناقد التنويري، مجلة العربي، الكويت، العدد: 660.
- 09- صلاح الدين الهواري، (د ت)، ديوان امرئ القيس، ط1، دارومكتبة الهلال، بيروت.
- 10- طه حسين، 1933م، في الأدب الجاهلي، ط: 3، مطبعة فاروق، القاهرة.

- 11- مفيد قميحة، 2008م، شرح المعلقات السبع، (د ط)، منشورات دارومكتبة الهلال، بيروت.
- 12- محمد بن سلام الجمحي، (د ت)، طبقات فحول الشعراء، ج1، (د ط)، تقديم محمود محمد شاكر، دارالمدني، جدة.
- 13- طه حسين، 1969م، من حديث الشعر والنثر، ط: 10، دارالمعارف، مصر.
- 14- صباح جمال الدين، 2015م، علي الوردي نقد كتاب في الشعر الجاهلي لطفه حسين، ط1، الوراق للنشر والتوزيع، بغداد، ص: 54.
- 15- إسماعيل سراج الدين، 2006م، لطفي عبد الوهاب، طه حسين معلم الأجيال، (د ط)، مكتبة الاسكندرية.

